من التنظيم المعقول المعتدل للغاية. هذه الفكرة تذهل الأغنياء، لأنهم مقتنعون بأن الفقراء لن يعرفوا كيف يستغلون كل هذا الفراغ. وفي أمريكا غالبا ما يعمل الناس ساعات طوالا حتى بعد أن يغدوا أثرياء. هؤلاء الناس بطبيعة الأمر كارهون لفكرة توفير الفراغ للكادحين في سبيل الرزق إلا على اعتبار أنه نتيجة متجهمة للبطالة، وهم في الحقيقة يكرهون الفراغ حتى لأبنائهم. والغريب في الأمر أنهم لايكترثون بكون زوجاتهم وبناتهم لايقمن بعمل شيء على الاطلاق بينما هم يتمنون لأبنائهم العمل في كد واجتهاد. الغريب أن الاعجاب المتعالي نحو الفراغ والكسل الذي يمتد إلى كل من الجنسين في المجتمع الإرستقراطي مقصور في المجتمع الذي يسير دفته الأثرياء (البلوتوقراطية) على النساء، ولكن هذا لايتفق على أيه صورة مع منطق العقل السديد.

يجب الإقرار بأن الاستغلال الحكيم للفراغ هو نتاج المدنية والتعليم، وأن الانسان الذي اعتاد على العمل ساعات طويلة يصيبه الملل لو أنه أصبح متعطلا بين يوم وليلة. ولكن بدون جانب كبير من الفراغ يجد الانسان نفسه محروما من الكثير من أطايب هذه الحياة. لم يعد هناك داع لكي يعاني غالبية الناس من هذا الحرمان. والتقشف السخيف الذي يحمل طابع التضحية هو الذي يجعلنا عادة نستمر في الاصرار على العمل بكميات ضخمة رغم أن الحاجة إليها لم تعد قائمة.

ورغم أن هناك تباينا تاما بين المذهب الجديد الذي يسود حكومة روسيا وبين تعاليم الغرب التلقيدية في كثير من الأمور، إلا أن هناك بعض الأوضاع القديمة التي لم يطرأ عليها إطلاق أدنى تغيير تحت ظل هذا النظام. فموقف الطبقات الحاكمة وخاصة هؤلاء الذين يقومون بالدعاية التعليمية بشأن وقار العمل يكاد يكون تمام نفس الموقف الذي اعتادت الطبقات الحاكمة فيما مضى التبشير به لمن يطلق عليهم اسم «الفقراء الشرفاء». وفي ظل المذهب الجديد يعود إلى الظهور التبشير بالاجتهاد والاتزان والاستعداد للعمل ساعات متصلة من أجل فؤاد تجنى في المستقبل البعيد، حتى الخضوع إلى السلطة يعود إلى الظهور. أضف إلى ذلك أن السلطة لاتزال تمثل إرادة حاكم الكون الذي يلقب الآن على أية حال باسمه الجديد «المادية الجدلية».

●●●

وانتصار الطبقة العاملة في روسيا يطابق في بعض النواحي انتصار القائمات بالحركة النسائية في بعض البلاد الأخرى. فقد أقر الرجال بقداسة المرأة وطهارتها لأجيال متعاقبة، هذه القداسة التي لاتتوافر في الرجل. وقدم الرجال العزاء للنساء على مركزهن الواطيء، وعلى ضعفهن زاعمين أن القداسة أمر مرغوب فيه أكثر من القوة. ولكن القائمات بالحركات النسائية قررن أن يجتمع لهن كل من القداسة والقوة لأن الرائدات بينهن قد آمن بكل ما قاله لهن الرجال من كون الفضيلة أمر مرغوب فيه ولكنهن لم يعتقدن فيما زعمه الرجال من تفاهة السلطان السياسي. وقد حدث شيء من هذا القبيل في روسيا بشأن العمل اليدوي. فقد ظل الأغنياء وأصنائهم لأجيال متلاحقة يكيلون الثناء على «الكد الشريف» ويمتدحون الحياة البسيطة ويدينون بدين يبشر الفقراء بأن فرصهم في دخول ملكوت السماوات أوسع من الفرص التي تتهيأ للأغنياء. وبوجه عام حاول هؤلاء الناس أن يدخلوا في روع العمال اليدويين أن هناك شرفا خاصا في تغيير وضع المادة على الأرض تماما كما حاول الرجال اقناع السيدات بأنهن يحصلن على شرف خاص من عبوديتهن الجنسية.

وفي روسيا أخذت كل هذه التعاليم بشأن امتياز العمل اليدوي وتفوقه على محمل الجد مما أدى إلى تكريم العامل اليدوي أكثر من أي شخص آخر وانبعثت ما هي في جوهرها مناشدات بعثية وإن لم تكن هذه المناشدات تخدم الأغراض القديمة. هذه المناشدات البعثية تطلق بغرض الحصول على عمال يجابهون أشق الأخطار للقيام بأعمال ذات طابع خاص. وبذلك أصبح العمل اليدوي المثل الأعلى الذي يراود الشباب كما أصبح الأساس الذي ترتكز عليه كافة التعاليم الأخلاقية.

ومن الجائز أن يكون هذا في الوقت الحاضر للخير. فروسيا كبلد مترامي الأطراف يزخر بالموارد الطبيعية يرنو إلى التطور، وعليه أن يتطور باستخدام جانب ضئيل من القروض. والعمل الشاق في مثل هذه الظروف ضرورة ومن المحتمل أن تجنى الثمار من ورائه. ولكن ما الذي سيحدث عن الوصول إلى نقطة حيث يستطيع كل إنسان أن يحيا في رغد وراحة دون أن يعمل ساعات طوالا؟

لدينا في الغرب طرق شتى لعلاج هذه المشكلة فنحن لانبذل أية محاولة في سبيل العدل الاقتصادي لدرجة أن أقلية صغيرة من عدد السكان، لايقوم الكثير منهم بعمل شيء على الاطلاق، تحظى بنسبة كبيرة من الانتاج. ونظرا لعدم وجود سيطرة مركزية على الانتاج فنحن ننتج مختلف الأشياء التي لاحاجة لنا بها. ونحن نحتفظ بنسبة عالية من الطبقة الكادحة في حالة تعطل لأننا نستطيع الاستغناء عن عملهم بجعل الآخرين يكدحون. فإذا ثبت أن كل هذه الوسائل ليست بالناجحة نلجأ إلى الحرب فنجعل جانبا من الناس يشتغلون بصنع المفرقعات الشديدة الانفجار وجانبا آخر يقوم بتفجيرها كما لو كنا أطفالا قد اكتشفوا لتوهم الصواريخ والألعاب النارية. ونحن ننجح ولكن في عسر عن طريق شتى هذه الحيل في أن نبقى الاعتقاد بأن قدرا كبيرا من العمل اليدوي شيء محتوم في حياة الانسان العادي، ماثلا في أذهاننا.

■ مجتزأ من مقال «في مدح الكسل» الصادر في كتاب بالعنوان ذاته المشروع القومي للترجمة

(١) منذ ذلك الحين نجح أعضاء الحزب الشيوعي في الحصول على امتيازات المقاتلين والكهنة.

تأملات فى أحوال الكسل

سعيد توفيق

صورة الحياة في الدار الآخرة كما رسمتها لنا الأديان على النقيض من صورتها في الدنيا، فالدنيا دار جهد وعمل ومن ثم تعب وشقاء؛ ولهذا يقول لنا الإنجيل: "بالتعب تأكل منها كل أيام حياتك"، ويقسم الله في كتابه "لقد خلقنا الإنسان في كبد". أما الدار الآخرة أو الجنة، فليس فيها شيء من هذا، وكل شيء ينال دون أدنى جهد أو مشقة: فأهل الجنة على الأرائك متكئون، وألذ الطعام والشراب يأتي به إليهم أو يطوف عليهم ولدان مخلدون، وحتى أجمل النساء اللاتي يكافح الرجال من أجلهن في الحياة الدنيا بمحاولة إحراز شيء من القوة ممثلة في المال أو السلطة، ينالهن المؤمنون بالجنة هبة إلهية ونوالا على ما كانوا في الدنيا يفعلون. ومفاد القول إن أهل الجنة ينعمون بحالة من الكسل الشريف الجميل نوالا على عملهم في الدنيا. فهل يعني هذا أن "الكسل" ينطوي على "قيمة إيجابية" باعتباره مرتبطا بالسعادة والنعيم، وأن "العمل" ينطوي على "قيمة سلبية" باعتباره مرتبطا بالجهد والشقاء؟!

إن وضع السؤال على هذا النحو ينطوي على مغالطة؛ لأنه يعقد مقارنة بين أمرين مختلفين من حيث طبيعة كل منهما؛ إذ يفترض وجود معنى واحد لما له قيمة ولما يجلب السعادة في الحالتين، وهو افتراض لا نستطيع أن نتحقق منه: فنحن لا نعرف ما الذي ستكون عليه الطبيعة البشرية في الحياة الآخرة؛ ومن ثم لا نعرف على أي نحو تتحقق السعادة في النفس البشرية، وما هو الذي يعد ذا قيمة بالنسبة لها. وما لا نعرفه ينبغي دائما أن نصمت عنه كما يقول فتجنشتين. فنحن لا نعرف - كما يعلمنا الظاهراتيون - سوى ما يظهر لنا في خبراتنا البشرية التي نحياها، وهذا هو المجال المتاح لنا والذي يمكن أن نخوض فيه. وما نعرفه هنا ونكون على يقين منه هو أن مفهوم "الكسل" في حياتنا مرتبط بمفهوم "العمل" باعتباره نقيضا له. فلنحاول أولا أن نحدد مفهوم "العمل": ماذا يعني "العمل" ببساطة؟

يمكننا تعريف العمل بأنه كل نشاط أو جهد يسعى إلى التأثير في عالم الإنسان إما من خلال خلق شيء جديد أو من خلال تحويل شيء ما من صورة وحالة معينة إلى صورة وحالة أخرى. وهذا التعريف البسيط الذي أقدمه هنا هو ما يمكن أن يحررنا من كثير من سوء الفهم الذي ارتبط بمفهومي "العمل" و"الكسل" معا. إن مفهوم العمل قد ارتبط تاريخيا في الأذهان بالطبقة العاملة، وهي الطبقة التي يعمل الفرد فيها غالبا لصالح الآخر الذي قد يكون هو الإقطاعي أو البورجوازي أو حتى الحكومة. وقديما كان يقصد بهذه الطبقة أولئك الذين يشتغلون بالعمل اليدوي في مقابل أولئك الذين يشتغلون بالنظر العقلي، وكان اليونان يحقرون من شأن العمل اليدوي ويعتبرونه أدنى مرتبة من النظر العقلي (أو التفلسف) الذي لا يتوافر إلا لتلك الصفوة التي تعيش عيشة الفراغ فيما يرى أرسطو. وقد ظلت هذه النظرة الدونية للعمل سائدة في الغرب حتى عهد ليس ببعيد، فحتى أوائل القرن التاسع عشر في بريطانيا كان من الطبيعي أن يشتغل العامل خمس عشرة ساعة في اليوم دون أن تكون له أية حقوق في المطالبة بأوقات فراغ أو عطلات؛ إذ كانت الإجابة الجاهزة الشائعة للرد على مثل هذه المطالب هي: وماذا يفعل هؤلاء بأوقات فراغهم التي ستكون مفسدة لهم؟! وهكذا كان هناك دائما في مقابل السواد الأعظم من طبقة العمال فئة صغيرة ممن يشكلون الطبقة التي تعيش عيشة الفراغ lei-sure class، وهي الطبقة التي كانت تحظى بالكثير من الامتيازات التي لا تقوم على أساس من العدل الاجتماعي، ومن هنا كانت الكراهية لتلك الطبقة أو عدم التعاطف معها على الأقل، وفي مقابل ذلك كانت تلك الطبقة تحاول دائما أن تحظى بالتأييد باختراع النظريات التي تبرر بها وضعها وامتيازها الطبقي. وعلى الرغم من تراجع هذه الطبقة ومحاولة الجامعات خلق طبقة الصفوة البديلة بطريقة أكاديمية منهجية بحيث تبدو نتاجا للنظام وليس للصدفة، فإن هذه الطبقة - فيما يرى برتراند رسل في كتابه الذي يحمل عنوان "في مدح الكسل" - هي التي أسهمت في بناء مجمل ما نسميه الحضارة بما أبدعته من علم وفن وفلسفة، حتى إنه ذهب إلى أنه "بدون الطبقة التي تعيش عيشة الفراغ لم يكن من الممكن للبشرية أن تخرج أبدا من حالة البربرية" (ص ٦٢).

وبعض هذا الكلام صحيح وبعضه خطأ:

فمن الصحيح القول إن الحضارة قامت على جهود الصفوة من المبدعين عبر العصور، ولكن ليس من الصحيح في نفس الوقت القول إن هؤلاء الصفوة يشكلون طبقة تعيش عيشة الفراغ في مقابل الطبقة العاملة. ومن ناحية يمكن القول إن بعض الخطأ هنا يكمن في أن هذا التصنيف والتمييز يستند إلى نوع من التمييز الطبقي الذي كان متأصلا في الفكر الغربي منذ اليونان الذين كانوا يحقرون من شأن العمل اليدوي، حتى إنهم كانوا يعدون فنا كفن النحت من قبيل الصناعات شأنه شأن الحدادة والنجارة. ومن ناحية أخرى يمكن القول إن مكمن الخطأ الأساسي في مجمل الكلام السابق مرتبط بسوء فهم مفهوم "العمل" ذاته، فمفهوم "العمل" ليس مقصورا على مفهوم "الطبقة العاملة" أو مرادفا له، فالعمل يمتد إلى الإبداع نفسه، وإلى أولئك الذين وصفهم أرسطو بأنهم يعيشون عيشة "الفراغ". فما معنى الفراغ هنا؟ لا ينبغي أن نفهم الفراغ هنا على أنه ضد العمل بإطلاق، وإنما هو ضد نوع معين من العمل، و !!!!أو هو - بمعنى أدق - يعني "التفرغ" لنوع محدد من العمل الذي نسميه "الإبداع" سواء على المستوى العلمي أو الفني أو الفلسفي. وهذا الشكل من أشكال العمل (أو الإبداع) الذي يتطلب التفرغ لا يعني أو يفيد معنى الكسل، بل يعني نشاطا عقليا وجهدا روحيا مضنيا. والدليل على ذلك أننا نصف الإبداع الفني دائما بأنه ينطوي على نوع الألم والمعاناة التي تفوق كل أشكال المعاناة في الأعمال الأخرى. ولم يكن عمل المبدعين يوما إلا ثمرة هذا الجهد العقلي والألم الروحي السامي الذي يفوق كل أشكال الألم الناتجة عن الأعمال الأخرى التي يمارسونها أحيانا لكسب قوت يومهم؛ ولهذا توقفت الحياة الإبداعية لكثير منهم عندما توقف أو تدهور نشاطهم العقلي. ولذلك يمكن القول إن حالة الكسل لا وجود لها لدى المتفرغين للعمل الإبداعي: فحالة الكسل الوحيدة المقبولة هنا - والتي يمكن فهمها باعتبارها حالة إيجابية - هي ما يمكن أن نسميه "حالة الاسترخاء الإبداعي" التي تبدو دائما كما لو كانت نوعا من الجزاء الذي يكافئ به المبدع نفسه على عمل أنجزه، وتكون في نفس الوقت بمثابة مرحلة تأمل أو حضانة لميلاد عمل جديد. فالعمل في حياتنا - سواء الإبداعية أو غير الإبداعية - مرتبط بالمعاناة والشقاء، ولكنه في نفس الوقت مرتبط بحالة من السعادة والبهجة المتولدة عن إحساسنا بقدرتنا على التأثير في العالم، وعلى أن نكون فاعلين فيه.

ولنحاول الآن تطبيق هذه التأملات في أحوال العمل والكسل على أحوالنا في مصر فماذا نجد؟

إن العمل على المستوى الإبداعي يتطلب مناخا من الحرية ووفرة من المحفزات التي تبعث الطاقة في الروح، وهي أمور غائبة على الأقل على مستوى الإبداع العلمي والفكري؛ ولهذا وجدنا أجيالا من المشتغلين بهذه المجالات في الجامعات قد أصبحوا موظفين كسالى، أي أصبحوا طاقات معطلة تفتقد الروح المحفزة على العمل الإبداعي. أما على مستوى الطبقة العاملة الأخرى التي تشكل جموع الشعب من موظفين وعمال، فإننا نلمس فيها روح الكسل الذي يصل إلى حد التبلد، وهي حالة غريبة أصابت حياتنا في الصميم، ولعلها تكون عرضا أساسيا من أعراض الأمراض المزمنة التي نعاني منها. ولا شك أن هذه الأعراض تشبه من بعض الوجوه الحالة الهروبية الانسحابية التي عبرت عن نفسها في العصر الهيلينستي الذي جاء في عقب أفول الحضارة اليونانية، وهي الحالة التي تمثلت أعراضها في مفهومي "الأباثيا" عند الرواقيين و"الأتراكسيا" عند الأبيقوريين: والمفهوم الأول كان يعني إماتة اللذات ووأد الشهوات، أما المفهوم الثاني فكان يعني حالة اللامبالاة أو عدم الاكتراث، وكلتا الحالتين جاءتا كانعكاس وتعبير فكري عن انحلال العصر وافتقاد الأمن والكرامة والحرية. ولكن في حين أن مثل هذه النزعات عبر العصور كانت فيها مسحة من التفلسف أو الموقف الفكري العقائدي، فإنها في حياتنا الخاصة الراهنة تتخذ شكلا لا مثيل له: إنها حالة سيكولوجية محضة أصابت الروح والوجدان، وعبرت عن نفسها في تبلد الحس والشعور.

صورة الحياة فى الدار الآخرة كما رسمتها لنا الأديان على النقيض من صورتها فى الدنيا : فالدنيا دار جهد وعمل ،ومن ثم تعب وشقاء ؛ ولهذا يقول لنا الإنجيل " بالتعب تاكل منها طول حياتك .." ، ويقسم الله فى كتابه " لقد خلقنا الإنسان فى كبد " . أما الدار الآخرة أو الجنة ، فليس فيها شيء من هذا ، وكل شيء ينال دون أدنى جهد أو مشقة ؛ فأهل الجنة على الأرائك متكئون ، والذ الطعام والشراب يؤتى به إليهم إذ يطوف عليهم ولدان مخلدون، وحتى أجمل النساء اللاتى يكافح الرجال من أجلهن فى الحياة الدنيا بمحاولة إحراز شيء من القوة ممثلة فى المال أو السلطة – ينالهن المؤمنون بالجملة هبة إلهية وثوابًا على كانوا فى الدنيا يفعلون . ومفاد القول إن أهل الجنة ينعمون بحالة من الكسل المترف الجميل ثوابًا على عملهم فى الدنيا . فهل يعنى هذا أن " الكسل " ينطوى على " قيمة إيجابية " باعتباره مرتبطًا بالسعادة والنعيم ، وأن " العمل " ينطوى على " قيمة سلبية " باعتباره مرتبطًا بالجهد والشقاء ؟!

إن وضع السؤال على هذا النحو ينطوى على مغالطة ؛ لأنه يعقد مقارنة بين أمرين مختلفين من حيث طبيعة كل منهما؛ إذ يفترض وجود معنى واحد لما له قيمة ولما يجلب السعادة فى الحالتين ، وهو افتراض لا نستطيع أن نتحقق منه : فنحن لا نعرف ما الذى ستكون عليه الطبيعة البشرية فى الحياة الآخرة ؛ ومن ثم لا نعرف على أى نحو تتحقق السعادة فى النفس البشرية ، وما هو الذى يعد ذا قيمة بالنسبة لها . وما لا نعرفه ينبغى دائمًا أن نصمت عنه كما يقول فتجنشتين. فنحن لا نعرف – كما يعلمنا الظاهراتيون سوى ما يظهر لنا فى خبراتنا البشرية التى نحياها ، وهذا هو المجال المتاح لنا والذى يمكن أن نخوض فيه . وما نعرفه هنا ونكون على يقين منه هو أن مفهوم " الكسل " فى حياتنا مرتبط بمفهوم " العمل " باعتباره نقيضًا له . فلنحاول أولاً أن نحدد مفهوم " العمل " : ماذا يعنى " العمل " ببساطة ؟

يمكننا تعريف العمل بأنه كل نشاط أو جهد يسعى إلى التأثير فى عالم الإنسان إما من خلال خلق شيء جديد أو من خلال تحويل شيء ما من صورة وحالة معينة إلى صورة وحالة أخرى . وهذا التعريف البسيط الذى أقدمه هنا هو ما يمكن أن يحررنا من كثير من سوء الفهم الذى ارتبط بمفهومى " العمل " و " الكسل " معًا : إن مفهوم العمل قد ارتبط تاريخيًا فى الأذهان بالطبقة العاملة ، وهى الطبقة التى يعمل الفرد فيها غالبًا لمصلحة الآخر الذى قد يكون هو الاقطاعى أو البورجوازى أو حتى الحكومة . وقديمًا كان يقصد بهذه الطبقة أولئك الذين يشتغلون بالعمل اليدوى فى مقابل أولئك الذين يشتغلون بالنظر العقلى ، وكان اليونان يحقرون من شأن العمل اليدوى ويعتبرونه أدنى مرتبة من النظر العقلى (أوالتفلسف) الذى لا يتوافر إلا لتلك الصفوة التى تعيش عيشة الفراغ فيما يرى

سعيد توفيق

فمن الصحيح القول إن الحضارة قامت على جهود الصفوة من المبدعين عبر العصور ، ولكن ليس من الصحيح فى نفس الوقت القول إن هؤلاء الصفوة يشكلون طبقة تعيش عيشة الفراغ فى مقابل الطبقة العاملة . ومن ناحية يمكن القول إن بعض الخطأ هنا يكمن فى أن هذا التصنيف والتمييز يستند إلى نوع من التمييز الطبقى الذى كان متأصلاً فى الفكر الغربى منذ اليونان الذين كانوا يحقرون من شأن العمل اليدوى ، حتى إنهم كانوا يعدون فنًا كفن النحت من قبيل الصناعات شأنه شأن الحدادة والنجارة . ومن ناحية أخرى يمكن القول إن مكمن الخطأ الأساسى فى مجمل الكلام السابق مرتبط بسوء فهم مفهوم " العمل " ذاته : فمفهوم "العمل " ليس مقصورًا على مفهوم "الطبقة العاملة " أو مرادفًا له ، فالعمل يمتد إلى الإبداع نفسه ، وإلى أولئك الذين وصفهم أرسطو بأنهم يعيشون عيشة الفراغ . فما معنى الفراغ هنا ؟ لا ينبغى أن نفهم الفراغ هنا على أنه ضد العمل بإطلاق ، وإنما هو ضد نوع معين من العمل ، و أأأأأو هو – بمعنى أدق – يعنى " التفرغ " لنوع محدد من العمل الذى نسميه " الإبداع " سواء على المستوى العلمى أو الفنى أو الفلسفى . وهذا الشكل من أشكال العمل (أو الإبداع) الذى يتطلب التفرغ لا يعنى أو يفيد معنى الكسل ، بل يعنى نشاطًا عقليًا وجهدًا روحيًا مضنيًا ، والدليل على ذلك أننا نصف الإبداع الفنى دائمًا بأنه ينطوى على نوع الألم والمعاناة التى تفوق كل أشكال المعاناة فى الأعمال الأخرى . ولم يكن عمل المبدعين دومًا إلا ثمرة هذا الجهد العقلى والألم الروحى السامى الذى يفوق كل أشكال الألم الناتجة عن الأعمال الأخرى التى يمارسونها أحيانًا لكسب قوت يومهم ؛ ولهذا توقفت الحياة الإبداعية لكثير منهم عندما توقف أو تدهور نشاطهم العقلى . ولذلك يمكن القول إن حالة الكسل لا وجود لها لدى المتفرغين للعمل الإبداعى ؛ فحالة الكسل الوحيدة المقبولة هنا – والتى يمكن فهمها باعتبارها حالة إيجابية – هى ما يمكن أن نسميه " حالة الاسترخاء الإبداعى " التى تبدو دائمًا كما لو كانت نوعًا من الجزاء الذى يكافىء به المبدع نفسه على عمل أنجزه ، وتكون فى نفس الوقت بمثابة مرحلة تأمل أو حضانة لميلاد عمل جديد . فالعمل فى حياتنا – سواء الإبداعية أو غير الإبداعية – مرتبط بالمعاناة والشقاء ، ولكنه فى نفس الوقت مرتبط بحالة من السعادة والبهجة المتولدة عن إحساسنا بقدرتنا على التأثير فى العالم ، وعلى أن نكون فاعلين فيه .

ولنحاول الآن تطبيق هذه التأملات فى أحوال العمل والكسل على أحوالنا فى مصر . فماذا نجد ؟

إن العمل على المستوى الإبداعى يتطلب

من التنظيم المعقول المعتدل للغاية. هذه الفكرة تذهل الاغنياء لأنهم مقتنعون بأن الفقراء لن يعرفوا كيف يستغلون كل هذا الفراغ. وفى أمريكا غلابا ما يعمل الناس ساعات طوالا حتى بعد أن يغدوا اثرياء. هؤلاء الناس بطبيعية الامر كارهون لفكرة توفير الفراغ للكادحين فى سبيل الرزق إلا على اعتبار أنه نتيجة متجهمة للبطالة، وهم فى الحقيقة يكرهون الفراغ حتى لابنائهم. والغريب فى الأمر أنهم لايكترثون بكون زوجاتهم وبناتهم لايقمن بعمل شيء على الاطلاق بينما هم يتمنون لابنائهم العمل فى كد واجتهاد. الغريب أن الاعجاب المتعالى نحو الفراغ والكسل الذى يمتد إلى كل من الجنسين فى المجتمع الإرستقراطى مقصور فى المجتمع الذى يسير دفته الاثرياء (البلوتوقراطية) على النساء ولكن هذا لايتفق على أيه صورة مع منطق العقل السديد.

يجب الإقرار بأن الاستغلال الحكيم للفراغ هو نتاج المدنية والتعليم وأن الانسان الذى اعتاد على العمل ساعات طويلة يصيبه الملل لو أنه اصبح متعطلا بين يوم وليلة. ولكن بدون جانب كبير من الفراغ يجد الانسان نفسه محروما من الكثير من أطايب هذه الحياة. لم يعد هناك داع لكى يعانى غالبية الناس من هذا الحرمان. والتقشف السخيف الذى يحمل طابع التضحية هو الذى يجعلنا عادة نستمر فى الاصرار على العمل بكميات ضخمة رغم أن الحاجة إليها لم تعد قائمة.

ورغم أن هناك تباينا تاما بين المذهب الجديد الذى يسود حكومة روسيا وبين تعاليم الغرب التلقيدية فى كثير من الامور، إلا أن هناك بعض الاوضاع القديمة التى لم يطرأ عليها إطلاق أدنى تغيير تحت ظل هذا النظام. فموقف الطبقات الحاكمة وخاصة هؤلاء الذين يقومون بالدعاية التعليمية بشأن وقار العمل يكاد يكون تمام نفس الموقف الذى اعتادت الطبقات الحاكمة فيما مضى التبشير به لمن يطلق عليهم اسم «الفقراء الشرفاء»، وفى ظل المذهب الجديد يعود إلى الظهور التبشير بالاجتهاد والاتزان والاستعداد للعمل ساعات متصلة من أجل فؤاد تجنى فى المستقبل البعيد، حتى الخضوع إلى السلطة يعود إلى الظهور. أضف إلى ذلك أن السلطة لاتزال تمثل إرادة حاكم الكون الذى يلقب الآن على أية حال باسمه الجديد «المادية الجدلية».

●●●

وانتصار الطبقة العاملة فى روسيا يطابق فى بعض النواحى انتصار القائمات بالحركة النسائية فى بعض البلاد الاخرى. فقد أقر الرجال بقداسة المرأة وطهارتها لاجيال متعاقبة، هذه القداسة التى لاتتوافر فى الرجل. وقدم الرجال العزاء للنساء على مركزهن الواطىء وعلى ضعفهن زاعمين أن القداسة أمر مرغوب فيه أكثر من القوة. ولكن القائمات بالحركات النسائية قررن أن يجتمع لهن كل من القداسة والقوة لأن الرائدات بينهن قد أمن بكل ما قاله لهن الرجال من كون الفضيلة أمر مرغوب فيه ولكنهن لم يعتقدن فيما زعمه الرجال من تفاهة السلطان السياسى. وقد حدث شيء من هذا القبيل فى روسيا بشأن العمل اليدوى. فقد ظل الاغنياء وامعاتهم لاجيال متلاحقة يكيلون الثناء على «الكد الشريف» ويمتدحون الحياة البسيطة ويدينون بدين يبشر الفقراء بأن فرصهم فى دخول ملكوت السماوات أوسع من الفرص التى تتهيأ للاغنياء، وبوجه عام حاول هؤلاء الناس أن يدخلوا فى روع العمال اليدويين أن هناك شرفا خاصا فى تغيير وضع المادة على الارض تماما كما حاول الرجال اقناع السيدات بأنهن يحصلن على شرف خاص من عبوديتهن الجنسية.

وفى روسيا أخذت كل هذه التعاليم بشأن امتياز العمل اليدوى وتفوقه على محمل الجد مما أدى إلى تكريم العامل اليدوى أكثر من اى شخص آخر. وانبعثت ما هى فى جوهرها مناشدات بعثية وأن لم تكن هذه المناشدات تخدم الاغراض القديمة. هذه المناشدات البعثية تطلق بغرض الحصول على عمال يجابهون أشق الاخطار للقيام بأعمال ذات طابع خاص. وبذلك أصبح العمل اليدوى المثل الأعلى الذى يراود الشباب كما أصبح الاساس الذى ترتكز عليه كافة التعاليم الأخلاقية.

ومن الجائز أن يكون هذا فى الوقت الحاضر للخير. فروسيا كبلد مترامى الاطراف يزخر بالموارد الطبيعية يرنو إلى التطور، وعليه أن يتطور باستخدام جانب ضئيل من القروض. والعمل الشاق فى مثل هذه الظروف ضرورة ومن المحتمل أن تجنى الثمار من ورائه. ولكن ما الذى سيحدث عن الوصول إلى نقطة حيث يستطيع كل إنسان أن يحيا فى رغد وراحة دون أن يعمل ساعات طوالا؟

لدينا فى الغرب طرق شتى لعلاج هذه المشكلة. فنحن لانبذل أية محاولة فى سبيل العدل الاقتصادى لدرجة أن أقلية صغيرة من عدد السكان، لايقوم الكثير منهم بعمل شيء على الاطلاق، تحظى بنسبة كبيرة من الانتاج. ونظرا لعدم وجود سيطرة مركزية على الانتاج فنحن ننتج مختلف الاشياء التى لاحاجة لنا بها. ونحن نحتفظ بنسبة عالية من الطبقة الكادحة فى حالة تعطل لاننا نستطيع الاستغناء عن عملهم بجعل الآخرين يكدحون. فإذا ثبت أن كل هذه الوسائل ليست بالناجحة تلجأ إلى الحرب فنجعل جانبا من الناس يشتغلون بصنع المفرقعات الشديدة الانفجار وجانبا آخر يقوم بتفجيرها كما لو كنا أطفالا قد اكتشفوا لتوهم الصواريخ والالعاب النارية. ونحن ننجح ولكن فى عسر عن طريق شتى هذه الحيل فى أن نبقى الاعتقاد بأن قدرا كبيرا من العمل اليدوى شيء محتوم فى حياة الانسان العادى، ماثلا فى أذهاننا.

■ **مجتزأ من مقال «فى مدح الكسل» الصادر فى كتاب بالعنوان ذاته المشروع القومى للترجمة (١) منذ ذلك الحين نجح أعضاء الحزب الشيوعى فى الحصول على امتيازات المقاتلين والكهنة.**

المتاح لنا والذى يمكن أن نخوض فيه . وما نعرفه هنا ونكون على يقين منه هو أن مفهوم " الكسل " فى حياتنا مرتبط بمفهوم " العمل " باعتباره نقيضًا له . فلنحاول أولاً أن نحدد مفهوم " العمل " : ماذا يعنى " العمل " ببساطة ؟

يمكننا تعريف العمل بانه كل نشاط أو جهد يسعى إلى التأثير فى عالم الإنسان إما من خلال خلق شيء جديد أو من خلال تحويل شيء ما من صورة وحالة معينة إلى صورة وحالة أخرى . وهذا التعريف البسيط الذى أقدمه هنا هو ما يمكن أن يحررنا من كثير من سوء الفهم الذى ارتبط بمفهومى " العمل " و " الكسل " معًا : إن مفهوم العمل قد ارتبط تاريخيًا فى الأذهان بالطبقة العاملة ، وهى الطبقة التى يعمل الفرد فيها غالبًا لمصلحة الآخر الذى قد يكون هو الاقطاعى أو البورجوازى أو حتى الحكومة . وقديمًا كان يقصد بهذه الطبقة أولئك الذين يشتغلون بالعمل اليدوى فى مقابل أولئك الذين يشتغلون بالنظر العقلى ، وكان اليونان يحقرون من شأن العمل اليدوى ويعتبرونه أدنى مرتبة من النظر العقلى (أوالتفلسف) الذى لا يتوافر إلا لتلك الصفوة التى تعيش عيشة الفراغ فيما يرى أرسطو . وقد ظلت هذه النظرة الدونية للعمل سائدة فى الغرب حتى عهد ليس ببعيد ، فحتى أوائل القرن التاسع عشر فى بريطانيا كان من الطبيعى أن يشتغل العامل خمس عشرة ساعة فى اليوم دون أن تكون له أية حقوق فى المطالبة بأوقات فراغ أو عطلات ؛ إذ كانت الإجابة الجاهزة الشائعة للرد على مثل هذه المطالب هى : وماذا يفعل هؤلاء بأوقات فراغهم التى ستكون مفسدة لهم ؟! وهكذا كان هناك دائمًا فى مقابل السواد الأعظم من طبقة العمال فئة صغيرة ممن يشكلون الطبقة التى تعيش عيشة الفراغ - leisure class ، وهى الطبقة التى كانت تحظى بالكثير من الامتيازات التى لا تقوم على أساس من العدل الاجتماعى، ومن هنا كانت الكراهية لتلك الطبقة أو عدم التعاطف معها على الأقل ، وفى مقابل ذلك كانت تلك الطبقة تحاول دائمًا أن تحظى بالتأييد باختراع النظريات التى تبرر بها وضعها وامتيازها الطبقى . وعلى الرغم من تراجع هذه الطبقة ومحاولة الجامعات خلق طبقة الصفوة البديلة بطريقة اكاديمية منهجية بحيث تبدو نتاجًا للنظام وليس للصدفة ، فإن هذه الطبقة - فيما يرى برتراند رسل فى كتابه الذى يحمل عنوان " فى مدح الكسل " - هى التى أسهمت فى بناء مجمل ما نسميه الحضارة بما أبدعته من علم وفن وفلسفة ، حتى إنه ذهب إلى أنه " بدون الطبقة التى تعيش عيشة الفراغ لم يكن من الممكن للبشرية أن تخرج أبدًا من حالة البربرية " (ص. ٦٢) .

وبعض هذا الكلام صحيح وبعضه خطأ : هذا الجهد العقلى والألم الروحى السامى الذى يفوق كل اشكال الالم الناتجة عن الأعمال الأخرى التى يمارسونها أحيانًا لكسب قوت يومهم ؛ ولهذا توقفت الحياة الإبداعية لكثير منهم عندما توقف أو تدهور نشاطهم العقلى . ولذلك يمكن القول إن حالة الكسل لا وجود لها لدى المتفرغين للعمل الإبداعى ؛ فحالة الكسل الوحيدة المقبولة هنا - والتى يمكن فهمها باعتبارها حالة إيجابية - هى ما يمكن أن نسميه " حالة الاسترخاء الإبداعى " التى تبدو دائمًا كما لو كانت نوعًا من الجزاء الذى يكافىء به المبدع نفسه على عمل أنجزه ، وتكون فى نفس الوقت بمثابة مرحلة تأمل أو حضانة لميلاد عمل جديد . فالعمل فى حياتنا - سواء الإبداعية أو غير الإبداعية - مرتبط بالمعاناة والشقاء ، ولكنه فى نفس الوقت مرتبط بحالة من السعادة والبهجة المتولدة عن إحساسنا بقدرتنا على التأثير فى العالم ، وعلى أن نكون فاعلين فيه .

ولنحاول الآن تطبيق هذه التأملات فى أحوال العمل والكسل على أحوالنا فى مصر . فماذا نجد ؟

إن العمل على المستوى الإبداعى يتطلب مناخًا من الحرية ووفرة من المحفزات التى تبعث الطاقة فى الروح ، وهى أمور غائبة على الأقل على مستوى الإبداع العلمى والفكرى ؛ ولهذا وجدنا أجيالاً من المشتغلين بهذه المجالات فى الجامعات قد أصبحوا موظفين كسالى ، أى أصبحوا طاقات معطلة تفتقد الروح المحفزة على العمل الإبداعى . أما على مستوى الطبقة العاملة الأخرى التى تشكل جموع الشعب من موظفين وعمال ، فإننا نلمس فيها روح الكسل الذى يصل إلى حد التبلد، وهى حالة غريبة أصابت حياتنا فى الصميم ، ولعلها تكون عرضًا أساسيًا من أعراض الأمراض المزمنة التى نعانى منها . ولا شك أن هذه الأعراض تشبه من بعض الوجوه الحالة الهروبية الانسحابية التى عبرت عن نفسها فى العصر الهيلينستى الذى جاء فى عقب أفول الحضارة اليونانية ، وهى الحالة التى تمثلت أعراضها فى مفهومى " الأباثيا " عند الرواقيين و "الأتراكسيا " عند الأبيقوريين : والمفهوم الأول كان يعنى إماتة اللذات ووأد الشهوات ، أما المفهوم الثانى فكان يعنى حالة اللامبالاة أو عدم الاكتراث ، وكلتا الحالتين جاءتا كانعكاس وتعبير فكرى عن انحلال العصر وافتقاد الأمن والكرامة والحرية . ولكن فى حين أن مثل هذه النزعات عبر العصور كانت فيها مسحة من التفلسف أو الموقف الفكرى العقائدى ، فإنها فى حياتنا الخاصة الراهنة تتخذ شكلاً لا مثيل له : إنها حالة سيكولوجية محضة أصابت الروح والوجدان، وعبرت عن نفسها فى تبلد الحس والشعور .